

شعر التجربتي في أدبنا

بقلم محمد خير حلوان

النعمان يلتمس فيها الجاه واليسار ، على حين كان عنسره
يصدر في تجربته عن طمع في حياه كريمه يصيبها ، ويزهد
في المال و « يعف عند المعنم » .

وهناك شاعرا تجربه اخران ، هما طرفه بن العبد
البكري ، وامروؤ القيس ، وقد ران على شعر الاول مسحة
من التمرد والعصيان ، ومحاولة جاده في هدم الاعراف
الحياتيه وبنائها من جديد بناء يلائم حياته العابثه ، ويواكب
اقباله على لذات الحياه . اما تجربه امرى القيس فتمترفه
حيناً ، وفاسية حيناً اخر ، فهي غرامية لعوب في ظل والده
العظيم ، وهي متجهمه عبوس مع صاحبه عمرو على درب
الروم ، وهي في لونها استطاعت أن تضفي على شعره
الوانا من الحياه العاطفيه ، وان تمنحه المنزله التي تبوأها في
عصره وبعده .

ثم كان الاسلام ، وأنساح العرب في الدنيا العريضة
يفتحون الامصار ، ويكفون العروش ، وعاشوا تجارب
جديدة حين بعدوا عن حماهم الضاحي ، ففناوا لواعج حنينهم
وذابت نفوسهم حسرات على وطن وراءهم ، وهم لا يدرون
مع هذا يعودون اليه سالمين غانمين ، أم تغتالهم أيدي الموت
الذي يتربص بهم وراء الهضاب وبين الشعاب ، ولكننا
مضطرون هنا الى ان نذكر ان شعراء الفتوحات لم يكونوا
من الشهرة وبعد الصيت بحيث يفنون للشعراء التقليديين
أندادا ونظراء .

وربما وقف المتنبي عملاقا بين شعراء العرب الذين
يصدرون عن تجربة حيه فيما يرسلون من شعر ، لقد
كانت نفسه كبيره اتعبت جسمه - كما كان يقول - فهي
التي حملته على ان يتحسن طريقه الى المجد تحت ظلال
السيوف ، وبالفتكة البكر ، وتضرب اعناق الملوك ، وولدت
فيه شموخا وكبرياء رأى بجانبها كل شيء صغيرا تافها
كشعرة في مفرقه ، ودفعته الى ركوب الأخطار وجسوب
البلاد ، حتى اذا تناثرت من حوله أسئلة الناس عن غاياته ،
لاذ بالصمت لان ما يبتغيه « جل ان يسمى » . . لقد عظم
المتنبي شعرنا العربي ، حين وهبه نفحات حارة من شخصيته
العائيه ، بل انه منح الشعر التقليدي نفسه حياه مآكان
يحل بها ، حين القى عليه من ظلال تجاربه الوانا لماعة ، وهل
تخفى مدانحه لكافور وما صبه فيها من آلامه وآماله ؟ .

ولا مجال لعرض الوان اخرى من شعر التجربة عند
الاقدمين ، ويكفي ان نتذكر هنا روميات أبي فراس ،
وحجازيات الشريف ، ولواعج ابن زيدون ، وثكل ابن الرومي
و . . ويكفي ايضا ان نقول هنا : ان الشعراء الفحول اضاعوا
كثيرا من قصائدهم هدرًا ، وانفرد عدد غير قليل بشعر
التجربة ، ولكن كثيرا منهم كانوا مغمورين ، نسيتهم كتب
الادب ، وأهملهم التاريخ .

ولما افاق الشرق العربي في العصور الحديثه على
اصوات مدافع نابليون ، أدرك ان وراء هذه البحار الزاخرة
أما تفوقه حضارة وعلماء ، فهب يقتبس منها ويتلمذ عليها ،

أخذت تظهر في الايام الاخيرة نظرات نقدية تستهدف
الى اعادة النظر في التراث الادبي القديم عند العرب ، وتسعى
الى تقويمه على ضوءها وأسسها ، وان للتجربة اهميته
عظمى في هذه النظرات ، وما من شك في ان التجربة تمد
الشعر بعناصر غنية ، اذ تكسبه خصبًا في الخيال ، وفيضا
في العاطفة ، وتعمل على تكوين الصورة ، وتخلصها من
شوائب المحاكاة والتقليد ، كما تمنحه الوانا ذاتية وجدانية
تختلف عند الشاعر الواحد لاختلافها هي نفسها بين وقت
واخر ، ومن هنا يستطيع الناقد ان يكشف عن اعماق
الاديب حين يتحسس خطوط تجربته وابعادها ، وتلامح له
هيمنة الحياه الاجتماعيه على الافراد ، او تفاعل الجانبين
بعضهما مع بعض .

والباحث المدقق في تراثنا الشعري القديم يقف امام
ظاهرة واضحة ، هي ان رصيذا ضخما منه ذهب هدرًا فلم
يصدر عن احساس اصيل ، ولا عن تجربة حياتية ، وانما
قدم هدية لملك ، او دفعت اليه طوارئ خارجة عن حياه
الفرد الشاعر ، وربما استطعنا ان نرجع هذا الى فناء شخصية
البدوي في قبيلته ايام الجاهلية ، والى اتخاذ الخلفاء والامراء
شعراء خاصين يستقلون المناسبات الطارئة ليفدقوا عليهم
مايشاؤون من نعوت قد يكونون بريئين منها ، ثم الى تبلور
الشعر وتحنيطه في فنون خاصة لا يتعداها ، ومعان مطروقة
مخططة يتعاقب عليها الاسلاف والاحفاد من الشعراء ، وفي
استعارات مكررة شاعت في عدد جم من القصائد والمقطعات .

ولسنا نعني بهذه المقدمة ان الشعر العربي القديم خلو
من ظواهر غنية ، وهل نستطيع ان نفعل اسماء لامعة لا نقل
وميزا في هذه النقطه عن شعرائنا المعاصرين أمثال البياتي
والسياب والقباني ونازك و . . ؟

ان اول شاعر يطلع علينا في الجاهلية بشعر التجربة
العميقة هو عنتره العبسي ، فقد جهد ان يحقق كيانه في
مجتمع قبلي يقوم على الشرف والنسب ، وعانى أزمة
حاددة من صراعه العنيف مع مواضع بيئته الجائرة ، وظل
يغالبها وتغالبه حتى ظهر عليها في النهاية ، ولكنه بقسي
مشدودا الى حياهه الماضية ، يتذكرها بمرارة وحسرة ،
ويحاول ان ينساها وان يطوي شبحها الوخيم .

اما تجربة النابغة فقد تكون عنيفة الا انها سطحية
لاتمس اعماق الحياه الانسانية الاصيله ، ومن هنا لاتجدنا
امام اعتذارياته مشفقين عليه شفقتنا على عنتره ، ولا
مستنكرين من بيئته مااستنكرناه من بيئته ذاك ، انه يارق
الليل ، ويتراقص له شيخ الموت في وعيد النعمان ، اما
عنتره فكان يعانق السيف والرمح ، وتسيل الدماء من جسده
وجسد حصانه الادهم ، ثم ان تجربة النابغة لاتمثل الجذور
الاجتماعيه العميقة والمواضع المستقرة في حياه الجاهليين
ولا يقف هو طرفا في الصراع امام هذه التقاليد والاعراف
كما يحدث لزميله ، واذا كان لابد من ان نلتمس للتجربيه
النابغية باعنا حياتيا فانه اطمع الذي دفعه الى احضان

لها عناصر فنية قيمة ، وتبدو متماسكة من الناحيتين الفكرية والعاطفية .

كما يشهد ملاحظة جديدة هي ان صورة التعبير عن هذه التجربة قد تغيرت جذريا ، فلا التقريرية الخطايبه ولا الايقاع العروضي الرتيب ، ولا القافية الموحدة . . كل اوتك قد زال ، وحل محله همسات تسوقها اللفظة الرشيقه والموسيقى المتناغمة مع دقات الشعور ، والصورة الموحية التي تنقل مافي اعماق الوجدان من انطباعات حليلة عن تجارب الشخصية واحوالها .

ملاحظة ثالثة تنراى لنا في تجارب الجيل الجديد هي تلك البساطة التي تحف بها ، وتساثر بتكوين الصورة ، وتستبد بموجيه الفكرة ، غير ان معطياتها حمة - على بساطتها - وربما كان المثل هنا خير مسعف في التعبير عن هذه الفكرة ، وليكن شاهدنا من ديوان « مدينة بلا قارب » ل احمد حجازي ، يقول من قصيدة « مقتل صبي » :

الموت في الميدان طن

الصمت حط كالنفن

واقبلت ذباية خضراء

جاءت من المقابر الريفية الحزينه

ولولبت جناحها على صبي مات في المدينة

فما بكت عليه عين

الموت في الميدان طن

العجلات صفرت توفقت

قالوا : ابن من ؟

ولم يجب أحد

فليس يعرف اسمه هنا سواه

فالتقت العيون بالعيون

ولم يجب احد

فالناس في المدائن الكبرى عدد

جاء ولد

مات ولد . .

تبدو تجربة الشاعر في هذه القصيدة غاية في البساطة انها عارضة ولن يدوم أثرها أكثر من أيام ، ولكنه لم يقف عند حدود انفعاله الهائج - كما كان يفعل الشاعر القديم - بل اتخذ الحادثة مطية ليعبر عن حياة المدينة الصاخبة في نظر انسان ريفي مثله ، لقد غابت هنا الحياة الوادعة الحلوه ، وقامت ضجة العجلات وهديرها ، وامحت الالفه وزال التعارف ولكن «التقت العيون بالعيون» ، ثم لم يكن شيء ، « ولم يجب احد » .

والتجربة فوق هذا تشير في نفس القارىء خواطر كثيرة ، وتضع امام عينيه هذه الحياة الحديثة التي مزقت « الالة » وداعتها وهتكت وحدتها ، واحالتها الى سعسي خثيث وفردية ممعنة ، ويمتد في نفسه خطان متوازيان ، يمثل الاول حياة الانسان في الحضارة الزراعية ، ويمثل الثاني حياته في الحضارة الصناعية ، ونقلة الشاعر من ريفه المصري الى مدينة كالقاهرة او غيرها من المدن هي نقلة الإنسانية كلها من طور الزراعة الى طور الصناعة . .

وهكذا ينقلنا الشاعر الى أماكن بعيدة من خلال هذه التجربة التي وصفناها بالبساطة ، ويتيح لنا - بالايحاء - ان نرتاد آفاقا أخرى نستمد منها من معطيات التجربة والتعبير عنها .

محمد خير الحلواني

حلب

واصطبغت حياته بخضارة الغرب ، وتدفت الى ربوعه تيارات فلسفيه فكرية مكنت للذاتية الفردية ان تظهر لتحقق وجودها ضمن الاطار الاجتماعي ، وأدت لترجمة والبعثات وظيفتها المطلوبة في تطعيم الادب العربي ، وكان من جنراء ذلك كله ان ظهرت حرته نقدية رفع لواءها في مصر عباس العقاد وصاحبها : المازني وشكري ، وقام بأعبائها في المهجر اعضاء الرابطة القلمية ولاسيما نعيمة وجبران ، ونادى النقاد هؤلاء بشعر « الشخصية » او بشعر « الذاتية » وهاجموا التقاليد البالية في الشعر القديم ، واتخذوا اصناما معبودة وانهاوا عليها يحطمونها ، وفي ايديهم نظرات جديدة بعضها غربي وبعضها ذوقي نمته الخبرة وسعته الثقافة العميقة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الحركة النقدية هذه وقفت الشعراء التقليديين عند مفهومات جديدة ، ووضعت امام الناشئين أسسا يجب ان يعوها بل ان يلمسوها نابعة من نفوسهم ، ووضحوا ان مهمة الشاعر لا تتوقف عند نقل الابعاد الخارجية للاشياء ، ولكنها التعبير عن انطباع هذه الاشياء في النفوس ، وما تثيره فيها من احساسات ومشاعر ، ولقي شوقي من هؤلاء نقدا زعزع مكانته في دنياه الرفيعة ، وحمله على ان يضرب في متاهات جديدة لعله يرى فيها نبعا ترا يروي حاوقهم الظامئة الى ادب جديد .

والواقع ان شعر شوقي لا يتعدى حدود الادب القديم ، ومهما يبالغ في تقييمه المغالون فإنه لا يخرج عن نطاق الحدود المرسومة للشعر التقليدي عند العرب ، وهو ليس بشاعر تجربة ، بل شاعر مناسبات ، ولكنه قد يعيش تجربة غيره فيبدع ايما ابداع ، ومن من النقاد لا يؤخذ بقصيدته « جبل التوباد » التي تفصح عن تجربة « قيس » ؟ ومن هنا كان غزله في مسرحياته ولا سيما « مجنون ليلى » اعذب من غزله في شوقياته .

وكان عمل هذا الجيل من النقاد مزدوجا ، ولهذا كان بالغ الاهمية ، فهم يجمعون النقد العميق الى الشعر الاصيل فاذا وضعوا الاسس النظرية ، او عاجوا النقد التطبيقي ، مضوا يقدهون نماذج شعرية لهم وتحمل طوابع التجربة التي لا تخلو من عمل الفكر ، وسعة الثقافة ، حتى ليتمكن القول : ان هؤلاء هم اول من ارسى شعر التجربة على شطآن ادبنا الحديث .

ثم ظهر الجيل الجديد : جيل السياب وعبد الصبور والحجازي والقباني - وغدا شعر التجربة امرا مألوفا ، فلا يحتاج الدارس الى طويل تأمل في دواوينهم ليقف عندهم على ما يريد من هذا القبيل ، ولكنه يشهد ظاهرة جديدة لم تكن واضحة تماما في دواوين الجيل السابق لهم ، هي انهم يتوسعون في التعبير عن جزئيات التجربة ومراحلها ، ويسوقونها واقعية على شكل اقصوصة شعرية تتوفر

طبعت على مطابع



تلفون : ٢٢٢٩٢١